

على هامش النفر

الأدب «المهموس»

والادب الصادق

الأستاذ سيد قطب

الشرح لما يريد تدلّ عن « الثقافة » . قال في أحد الأعداد :
« الميمس في الشعر ليس معناه الضعف ، فالشاعر الذي
هو الذي يهيمس ، فحس صوته خارجاً من أعماق نفسه في نبرات
حارة ؛ ولكنه غير الخطابة التي تغلب على شعرنا فتفسده ،
إذ تبعده عن النفس ، عن الصدق ، عن الذوق من القلوب »
ثم قال في عدد آخر :

« وبعد ، فهذه شعر صادق جميل ، وهناك نثر صادق جميل ،
سميتها مهموسة لأعجز عما يشبه التعبير الفرنسي « à mi-voix »
الذي نستطيع ترجمته حرفياً بـ « نصف الملفوظ » والذي في نفسي
ليس واضحاً تمام الوضوح ، لأنه في الحق إحساس أكثر منه معنى ،
وإنما أستطيع أن أوحى للقارئ بشيء منه . إن قلت إنني أقصد
إلى ذلك الأدب الذي سلم من الروح الخطابية التي غلبت على
شعرنا التقليدي منذ نشئتي »
ثم يقول في نفس المقال :

« لست أدري آفصحت أم لا . ولكنني في الحق أعتد على
نفاذ روح القارئ ، لأنني يائس من أن أحل إليه ما في نفسي
حلاً تاماً ، ولهذا أترك له دائماً مشاطرة التفكير والإحساس .

قلت في كلمتي السابقة عن اللون المفضل من ألوان الأدب
الذي يدعو إليه الأستاذ مندور

« من جميع النماذج التي اختارها حتى الآن - والنموذج
كما قلت أكثر دلالة من الشرح العام - أستطيع أن أسى هذا
اللون باللون « الحنين » حسب تعبير أولاد البلد من القاهريين ا
الذي تحس فيه « بالحنينة » أو بالهمس والوداعة الأليفة حسب
تعبيره هو »

ولست أحب أن أظلم الأستاذ «مندور» ولا أن أشوه صورة
اللون الأدبي المفضل لديه . فليس في الأمر ما يدعو إلى هذا العناء ،
أو هذا الانقواء . فأننا أسجل له هنا - في الرسالة - بعض

الإنسانية التي تضحك وتبكي ، وتنوح وتغنى ، وتلبس
السواد وتلبس البياض ، وترقص في العُرس كما ترقص على
المقبرة ، وتتحسّس في الخندق كما تتيه في الحانة ...
ما هذا ؟

ماذا تسمع يا وتر ؟

ما هذا الصوت العذب الجميل الذي يقول :

أيها الخفاق في ممرى الهواء ؟

ولن هذا اللحن الخلاب :

يا شباب النيل .

يا عماد الجيل ؟

يا للموسيقا ؟

أين هو اللواء الخفاق ؟ وأين هم شباب النيل عماد الجيل ؟

اصدق يا موسيقا ... اصدق ... اصدق . فقد جد الجد ،

ومضى مضياً

وآن أن يزهي الباطل ا

قدّم قلبينا قرباناً للوطن ... ولما مضيت في إثره أقتل الهون
البرابرة الذين قتلوا كنفاري ، قبض على سفاحهم في طريق
الحرمة ، ولما أقتل من كلاهم غير عُلجّين ... فوا أسفاه على
أن لم أروّ الأولب بدمائهم جميعاً ... »

إسمع إلى لحن الإنسانية المجنونة يا وتر ا

الإنسانية التي أسابها هذا السّماز الحزن الذي جرّح

القلوب وقَرّح السيون وبرّح بالقافلة ...

ألا أيها الليل الطويل متى ينبج الفجر ؟

ألا أيها المير الضالّة متى تطلع الشمس ؟

ألا أيها الوتر المالحن متى تجد فتسمع قوى هدبر الموج

الصخب وهزيم الريح العُمر وانفطار قلب الإنسانية الباكية .

الإنسانية التي تدفن أطفالها تحت الردم ، وتهوى جواربها

في بطن اليم ، وتنبّ الغامها في البحر واليَبَس ...

ليخائيل نعيمة ، وقصيدة « ترنيمة سرير » لتسيب عريضة
بعدان نموذجاً طيباً لهذا اللون بذلك التقيّد . ولكن ما عداها
من مختاراته كان تماذج رديئة للشعر عامة ، ولهذا اللون من الشعر
كذلك ، لا في الأداء وحده ، ولكن في حقيقة الشعور .

فأحب أن أفصل هذا القول بمض التفصيل

يقول الشاعر « نسيب عريضة » بعنوان « ترنيمة سرير » :

ظلام الليل قد جنى وبوق الهم قد رنّا
فم يا طفل لا يهنا غنى بات شبعانا

فنام اليأس غطّانا فم ، لا عين ترعانا
إذا ما صبغنا حانا حسبنا الصبح أ كفانا

ألا يا هم بكفينّا لقد جفّت مآقينا
لو ان الدمع يفذونا أكلنا بمض بلوانا

فتنال هذه القطعة إعجاب الأستاذ « مندور » وحبّه ، وهي
حقيقة أن تنال هذا منه ، ومنا نحن أيضاً — بوصفها لوناً من
ألوان الأدب ، لا بوصفها اللون الوحيد الذي يجب —

ولكن الشاعر يقول قطعة أخرى بعنوان « يا نفس »
لا تبلغ أن تكون في هذا المستوى ، ولا أن تكون نموذجاً
شعرياً ، فتنال إعجاب الأستاذ مندور كذلك لأسباب سنذكرها
بعد . وهذه بمض مقطوعاتها :

يا نفس مالك والآنين تتألمين وتؤلمين

عذبت قلبي بالحنين وركتمته مائة صدين

قد نام أرباب القرام وتذرّوا لطف السلام

وأبيت يا نفس المقام أفانت وحدك تشعيرين؟

والليل مر على سواك أفا دهام ما دهالك

فلم التمرد والمراك ماسور جسمي بالمتين

ولا يعلو مستوى بقية القصيدة عن هذا المستوى ، الذي
لا شعر فيه ولا حرارة . وأحسب أن وضع القصيدتين متقابلتين
— وهما لشاعر واحد — يكفي للاحساس القوي الواضح بما بين
مستواهما من فروق . ولكن الأستاذ مندور يصب إعجابه عليها
جميعاً ، ورائد في ذلك أمران :

عليه أن يصل ما أقطع ، وأن يفصل ما أجل ، وأن ينفق على
الإشارة كل ما خلفها ...

وقد عنت أن أسجل هذه الفقرات ، ولعلها أقوى وأوضح
ما يسرر فكرة الأستاذ مندور — أو إحساسه بتعبير أسع —
وهذا اللون الذي يدعو إليه في الأدب ، لو حبيب ،
ما في ذلك شك ؛ ولكنه ليس اللون الوحيد الذي نعاذ
كل ما سواه ، لأنه ليس الصورة الوحيدة للحياة .

ولم يكن خطأ الأستاذ مندور في هذا التضييق وحده
— عند رسم آفاق الأدب — ولكنه كان كذلك في رسم صورة
واحدة لهذا اللون الواحد عند اختيار نماذجه — والنموذج الواحد
هو الذي يكشف عن الصورة الباطنة في نفس المتحدث —
فإذا جازى أن أعد النماذج التي جاء بها صورة اللون الذي يدعو إليه،
لم أكن حينئذ ظالماً له ، ولا مشوهاً لفرسه حين سميت الأدب
المهموس بالأدب « الحنين » !

وأحب أن أطمئن الأستاذ مندور على أنني أحس ما في نفسه
مما لا يستطيع أن يحمله إلى القارى حلاً تاماً — كما يقول —
ولا أرى في استنجاهه بإحساس القارى لتكملة ما يريد وتفصيله ،
عجزاً ولا قصوراً — كما رأى البعض — فالخس الفني لا يستطيع
الألفاظ دائماً أن تحمل معانيه كاملة بوضوح ، وحسبها أن تشير
إليه وأن تستثير في نفوسنا المعاني والأحاسيس والذكريات الخاصة به
وهو في شرحه للأدب المهموس ، كان أوسع أفقاً وأرحب
صدراً ، من الأمثلة التي جاء بها جميعاً من لون واحد ، ولو كانت
المسألة مسألة علمية أو فكرية لكان هذا الشرح هو كل شيء .
ولكنها مسألة فنية ، فالنشال هو الأصدق والأصح في تصوير
الشرح العام

وإذا قلت : كان أوسع أفقاً وأرحب صدراً ، فإنما أقبحه
إلى نفسه في فهم الأدب . ولا أحتاج أن أقول : إن ذلك الأفق
ليس وسيعاً ، وهذا الصدر ليس رحيباً ، بالتقاس إلى الفهم العام
الذي يجب أن تمتيه جميع الألوان الصادقة من الفنون ، لا لون
واحد قد يكون أفضل الألوان ، وقد لا يكون !

وقد قلت في الكلمة السابقة : « إنه كان موفقاً في اختيار
بعض النماذج ، غير موفق في اختيار بعضها ، قصيدة « يا أخي »

منه . ولكنى من أجلها لا أثق بأحكامه الأدبية — وبخاصة في الشعر — ومن أجلها كذلك أأخذ القراء من الاطمئنان إلى هذه الأحكام !

في « مندور » حنان وألفة ، وهو قد « هاجر » إلى أوروبا وحل معه إلى المهجر كتاباً يضم مختارات لشعراء « المهجر » وكان هذا وحده يكفي لأن يحب هذا الكتاب وشعراء هذا الكتاب . ولكنه كان كذلك كتاب الصبا الذى رافقه وهو « طالب » ، وجلده قد ضاعت ، وأوراقه قد تآكلت . ولكنه عاد « بكتابه » القديم كما ذهب به ، فزاده ذلك إعزازاً لديه وأثارة عنده . وصار يفزع إليه كلما ضاق الصدر أو غص الألم . وكان « أمين مشرق » بين من يضمهم كتابه فاستحق لقب « الصديق القديم » وكان سواء من شعراء المهجر كذلك . فكل منهم إذن هو « صديق قديم » !

ولقد قلت إننى « أخشى أن تكون حادثة ما أو عدة حوادث كامنة في ماضى الأستاذ مندور ، تتحكم في نفسه دون شعور » فهذه حادثة من تلك الحوادث التى افترضتها ومن يدري فلعل وراها من نوعها الكثير !

على أن هناك عاملاً آخر تتأثر به أحكام صاحب « الميزان الجديد » ؛ فقد عاد إلى مصر قريباً ، ولم يتسع له الوقت بعد ليقرأ الشعراء والأدباء المصريين ؛ إذ كان مشغولاً في الوقت القصير الذى تلا عودته بكتابة رسالة يتقدم بها إلى الجامعة . فهو — كما فهمت من حديث سريع مي — كان يحب الشعر المصرى هو ذلك الذى تنشره الأهرام في بعض « المناسبات » ، فأصدر عليه حكماً جازماً سريعاً . كما أنه عند ما تحدث عن « بيجاليون » لتوفيق الحكيم ، لم يكن قرأ كل مؤلفاته فأصدر عليه حكماً جازماً سريعاً . وهكذا كان أمره — فيما أحسب — مع شعر العقاد وشعر سواء : نظرة خاطفة سريعة ، وحكم جازم سريع ! وليس هكذا يصنع « أصحاب الموازين » !

وبعد فلقد كان اليوم موعدي مع القراء لعرض نماذج من الشعر الهامس الصحيح ؛ فمذرتى إليهم أن الفراغ المتاح قد استغرق كله . وإلى اللقاء القريب .

مير قطيب

(حلوان)

الأول : أن القصيدتين لشاعر من شعراء المهجر . وهو يحب شعراء المهجر ، لأنه حين ذهب إلى أوروبا كان يحمل بعض أدبهم ، وبعد أن عاد إلى مصر لم يفسح له الوقت ليقرأ الشعراء المصريين المحدثين !

والثاني : أن في كلتا القصيدتين نغمة أسى دفين متهاك . وهو لا يجوزنا في هذا إلى التخمين إذ يقول عن القصيدة الأولى : « أعود أنصت إليه — أى إلى نسب عريضة — يهدد طفله في « ترنيمة سرير » حزينة بموسيقاها الطردة ! » وكان قد قال عن المقطوعة الثانية : « وهانحن منذ المقطوعة الأولى في جو الشعر فالنفس تن »

يكفى إذن عند الأستاذ « مندور » أن تكون القصيدة لأحد شعراء المهجر ، وأن يكون فيها حزن وأين ، لتنال منه الحب والاستحسان ! ومرد هذا كما قلت إلى « مزاج خاص » هو إلى الحالات المرضية أقرب فيما أعتقد

هناك عقدتان نفسيتان لهما تلتقيان عند عقدة واحدة . فالأستاذ — كما لحت في أحاديثي القصيرة معه — حاد المزاج ، سريع التأثر ، شديد الحنين والألفة ، وهى صفات إنسانية تحب ولكنها لا تصلح للناقد ولا يستقيم معها النقد . وهو يقول في إحدى مقالاته :

بلغنى أن « أمين مشرق » قد قتلته سيارة بأمريكا ، فحزنت وراجعت نفسى في سر ذلك الحزن ، وهذا رجل ما رأيته قط ، ولا حدثنى عنه أحد ، وإنما هي مصادفات الحياة ساقتنى وأنا طالب ، إلى كتاب به مختارات لشعراء المهجر ، فتفتحت لنفهمهم نفسى ، واصطحبت الكتاب إلى أوروبا سنوات ، وعدت « بكتابتى » القديم كما ذهبت به ، وإن تكن جلده قد ضاعت ، وأوراقه الأولى قد تآكلت ، وأصبحت لا أعرف له عنواناً . ولكننى أفزع إليه كلما ضاق الصدر أو غص الألم ، فأجد بين صفحاته من عبير الروح ما يحى الإيمان

« أمين مشرق » بين من يضمهم « كتابى » . له فيه صفحات من الشعر والنثر . كم آتست من وحشيتى ورفعت من قلبى . إنه صديق قديم »

هكذا كتب الأستاذ « مندور » وأنا « أحب » هذه النغمة